

(٣)

إعجاز القرآن في نباته

القرآن الكريم كلام الله المعجز لخلقه من إنس وجان في أسلوبه وبيانه، وفي لغته وآدابه، وفي قصصه وشريعته، وفي حكمه وهدايته، وفي أوامره ونواهيته كيف لا؟ وهو كلام الله أنزله على سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات الى النور، ومن الجهالة إلى العلم، ومن التنافر والشقاق إلى الألفة والوداد وليهديهم إلى طريق الحق وطريق الرشاد.

نزل القرآن الكريم على النبي الأُمى بلسان عربي مبين متحديا العالم كله بأن يأتوا بمثله أن استطاعوا حتى إذا عجزوا قال بل سورة حتى إذا عجزوا قال بل آية فيعجزون ويقولون واليأس يملأ قلوبهم.

لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴿٢٦﴾ (فصلت ٢٦)

وكانوا إذا سمعوا القرآن نظر بعضهم الى بعض قائلين هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون.

وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾

(سورة التوبة ١٢٤ - ١٢٥)

تحامل العلماء على القرآن وقاموا بحملة كبيرة في عصرنا هذا، عصر العلم والمعرفة، عصر الكهرباء والراديو والتليفزيون، عصر الصواريخ وسفن الفضاء، وصفوا القرآن بالجمود، وعابوا عليه الثبات، وأخذوا عليه الاستقرار. ولكنهم لو فكروا قليلا ونظروا إليه نظرة خالية من الحقد والضغينة، لا يفسدها تعصب أعمى أو غل مستقر في الصدور، نظرة بريئة لا يشوبها غرور العلم أو الشعور بالحقد والتعالى بما وصل إليه العلم من رقى وتقدم لوجدوا في هذا الجمود قوة ولرأوا هذا الثبات معجزة، وفي ذلك الاستقرار دليلا على أنه ممن خلق الأرض والسماوات العلى، الرحمن على العرش استوى، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينها وما تحت الثرى. ولعرفوا أنه رغم ذلك الجمود، وذلك الاستقرار، وهذا الثبات يسير مع كل زمان ويسير كل عصر. فهو ثابت أبدا يزداد مع مرور الزمان قوة ومع تغير الأيام عزة ورفعة ومع تقدم العلم إعجازاً كيف لا. وهو مع ثباته يسير دوماً مع الرقى العلمى، يتفق مع الحقائق الكونية والاجتماعية. فإذا علمنا ذلك وأدركناه علمنا أنه كلام الله المنزل، كان فى علمه جلت قدرته قبل كل الأزمنة فهو يحويها كلها، ويتسع لها كلها فهو يسير معها يصاحب ما يأتى به العلم من تقدم ومعرفة. يجمع الماضى البعيد بالحاضر القريب يفسره علم اليوم ويؤيد ما سيكشف عنه البحث فى الغد. وفى هذا دليل على القوة والإعجاز. وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفسر من القرآن إلا القليل وكلامه وحى يوحى فكان صلوات الله عليه يبين ما فى كتاب الله من أوامر ونواهي ويشرح ما فيه من شعائر وشرائع عملاً بقوله تعالى:

﴿وَإِنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل ٤٤)

وما بقى بعد ذلك تكشف آياته على مر الأيام عما محتويه من معجزات تشهد بأنه تنزيل من رب العالمين آيات بينات فى صدور الذين أتوا العلم وتكفل سبحانه وتعالى بحفظه حيث يقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ٩)

والعلم مهما كان جزء من الوجود فهو جزء من كل مما وراء الكل. وكما نعرف من تاريخ العلوم أن الإستقرار والثبات لا يلازمان العلم بأى حال من الأحوال. فما هو علم اليوم هو في الغد القريب بعيد عن الصواب وما هو حقيقة نراها اليوم فهو في الغد القريب يصبح شكاً وتخميناً.

ولذلك قد احتاط كثير من العلماء ومنهم المرحوم الأستاذ الدكتور محمد ولى يوضح كلمة «كأن» أمام كل حقيقة علمية دفعا للشبهة واحتياطاً لما قد يكشف عنه الغد من حقائق. فلو أننا وضعنا كل ذلك أمام أعيننا لوجدنا فى مسأرة القرآن الكريم لكل زمان ومطابقتة لكل تقدم علمى إعجاز وأى إعجاز ولعرفنا أنه لحق تنزيل من حكيم خبير، وأنه فطرة الله التى فطر الناس عليها.

هذا القرآن الكريم الذى استطاع أن يخلق من الأمة العربية فى وقت قصير خير أمة أخرجت للناس فأرتقت إلى ذروة المجد وامتدت حضارتها وفتوحاتها الى الشرق والغرب وأصبح فيها العلماء الذين ارتقوا إلى ذروة العلم فكان فيهم الفقيه والأديب والشاعر والمؤرخ والطبيب والمفكر فى ملكوت السموات والأرض، ويبحث فيما على الأرض وما تحت الأرض، وهكذا ارتقت الأمة العربية وأصبحت متحضرة قوية يأخذ عنها العالم المدنية وتنقل عنها أوروبا الحضارة وتتعلم منها العلم.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن القرآن الكريم ليس بكتاب طبيعة أو كيمياء أو كتاب فى علم الحيوان أو فى علم النبات، وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون كذلك، ولكنه كتاب من عند الله أتى بأصول وقواعد عامة تشير الى سنن طبيعية تدفع الإنسان إلى البحث والدراسة فى الكون وما فيه وما عليه كما قال سبحانه وتعالى فى سورة فصلت:

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَلْحَقٌ بِهِمْ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ

(فصلت ٥٣)

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

وفي سورة الروم يقول سبحانه وتعالى:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَسَائِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَنْتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي بَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ (الروم ٢٠-٢٧)

ويقول جللت قدرته في سورة يس:

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَقَفَّجْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣١﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٢﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآءَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٥﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٦﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٧﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٣٨﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ نَشَاءُ

نُعْرِفُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾
 (سورة يس ٣٣ - ٤٤)

هذا قليل من كثير مما حدثنا به القرآن الكريم عن الكون ونظامه وقدرة الله وجمال مخلوقاته فإذا بالإنسان ينتقل من النظرة السطحية إلى النظرة العميقة، وينتقل من الظاهرة الطبيعية إلى الدرس والبحث، ومن جمال الكون إلى كمال الخالق، ومن دقة الصنعة إلى عظمة الصانع.

وإذا كان من صفات العالم العصري الرغبة في الدراسة والمعرفة فإن القرآن الكريم يقول للإنسان في سورة طه:

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١١﴾

ويقول أيضا في سورة الكهف:

قُلْ لَوْ كَانَتِ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَتِ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي

(الكهف ١٠٩)

وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدْدًا ﴿١٠٩﴾

والأمثلة على جهل الإنسان كثيرة وليس أدل على جهله وعجزه وقلة حيلته وعجز حواسه وقصورها عن إدراك الحقيقة الملموسة المتفق عليها. فتلك العين التي تنظر الى الشمس فتراها قرصا صغيرا مع علمنا بأنها أكبر من الأرض مرات ومرات. وننظر الى الظل فنراه ساكنا ثابتا وهو في الحقيقة في حركة دائمة. وتلك الأذن التي لا نستطيع أن ندرك أو نسمع ما في الهواء من أصوات وأنغام يحملها الأثير إلى كل مكان يستطيع جهاز الراديو الصغير أن يلتقطها ويسمعنا إياها. فإذا هدأت الحركة ونامت الكائنات وعم الكون السكون التام والهدوء الشامل قال الراديو إن ما تحسونه وهم وسراب فالأصوات تملأ الجو والغناء يعلو من كل حذب وصوب والضوضاء منتشرة في كل مكان فأسمعوني أصدقكم القول.

أما حاسة اللمس فكثيرا ما تخطئ ولعل أكثرنا يذكر تلك التجربة البسيطة التي يعرفها الطالب العادي، وهي أننا إذا وضعنا يدا في ماء بارد واليد الأخرى في ماء ساخن ثم وضعنا الإثنين بعد ذلك في ماء وسط بين الإثنين أحست الأولى بأنه ساخن وأحست الأخرى بأنه بارد. والماء واحد والشخص واحد. ويقول زئبق الترمومتر أن اليد الأولى مخطئة والثانية مخطئة أيضا بالماء وسط بين الإثنين.

وهكذا كل حاسة من الحواس تخطئ ويظن صاحبها أنها على صواب.

ليس هذا هو كل شيء بل إن حكمنا على الأشياء باختلاف استعداد تلك الحواس. ولنضرب بذلك مثل بسيطا هو مصباح الكهرباء المتقدم. رآه مبصر فقال أنه نور وضياء ولمسه أعمى فقال أنه جسم ساخن إنه نار ويقول الذي عنده علم أنها الكهرباء. ولو سألتها ما هي هذه الكهرباء لحدثنا كثيرا عنها مبتعدا كل البعد عن كنهها وماهيتها لا لشيء إلا لأنه يعجز عن إدراك ذلك السر فالعلم لا يعرف عن الكهرباء أكثر مما تحته من نتائج وعند ذلك ندرك قوله سبحانه وتعالى:

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

(فصلت ٥٣)

ويقول جلّت قدرته أيضا:

وَمَا أَوْهِنُكُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

(الإسراء ٨٥)

وبالرغم من كل هذا نرى كثيرا من الناس لا يرون النور في ضوء النهار ويغمضون عيونهم حتى لا يبهتهم نور الحقيقة يملأ الدنيا، وما فيها ويغلقون قلوبهم حتى لا يدخلها ذلك النور، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

وكثير من الناس، وكثير ما هم، لا يرون طريق الحق رغم وضوحه، وهكذا يعيشون بعيدون عن الحق يسبحون في بحر من الشك والوهم فلا يسعفهم التفكير، ولا يصل

بهم العقل إلى إدراك سر ذلك الكون العظيم الذى ينطق كل شئ فيه بقدرته سبحانه وتعالى. ويسبح فيه كل شئ بوحدانيته وعظمته ويشير كل شئ فيه إلى تدييره وحكمته ولكنهم كما يقال فيهم طبع على قلوبهم وعقولهم وعيونهم فهم فى غفلة لا يبصرون ولا يعقلون فلا يرون فى أنفسهم آية، ولا يرون فى الشجر الأخضر آية ولا فى زهره وبنمه آية، ولا فى الشمس آية، ولا فى القمر آية، والله سبحانه وتعالى يقول:

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

(الذاريات ٢٠-٢١)

ويقول سبحانه وتعالى:

سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴿٢٠﴾ (العنكبوت ٢٠)

وأنى لأذكر منذ أعوام مضت وكنت أشرح للطلبة مظهرا من مظاهر الحياة يتمثل فى سريان الدم داخل الأوعية الدموية فى لسان الضفدعة الحية، وكان المنظر رائعا حقا. الكريات الدموية الحمراء والبيضاء تتدافع وتسير داخل الأوردة والشرايين كأى زحام من البشر فى أشد الأوقات زحاما تتزاحم وتتدافع أفرادها، وهكذا كانت كل خلية دموية تسير الى هدفها الذى ننشده لتؤدى عملها الذى خصصت له. وكنت أترك الفرصة لكل طالب ليرى عظمة الحياة فى هذا المظهر الرائع من مظاهر الحياة. وإذا بطالب يقبل على مهل بخطوات هادئة بطيئة متزنة جعلنى أتوسم فيه حسن التفكير ورجاحة العقل ثم انحنى على المجهر وطال إنحناؤه فأستبشرت خيرا، وظننت أن ما يراه يبهره ويدهشه. وإذا به يرفع رأسه ناظرا إلى بعين متسائلة وهو يقول وماذا فى هذا؟ ققلت يا بنى إن هذا مظهر من مظاهر الحياة لا أريد أن تراه بعينك ولكن أريد أن تراه بقلبك، وأن ما تراه بقلبك، وأن ما تراه العين، ويدركه القلب أكثر بكثير مما تراه العين ولا يدركه القلب.

ثم اختليت بنفسى أحدثها وقلت كم من إنسان كهذا الإنسان يمر على آيات

كثيرة من آيات الله كل صباح وكل مساء، ينظر إلى الدنيا وما فيها ولا يصل إلى حقيقة ذلك الوجود الذي هو نفسه جزء منه ولا يدرك حقيقة موجد هذا الوجود والذي بغير قدرته لم يكن لهذه الدنيا، وما فيها، ومن فيها وجود. وكم من إنسان يدب على الأرض ويأكل من خيراتها ويشرب من مائها، ولكنه يقول أنها الطبيعة التي خلقتها وأوجدته ونسى أو تناسى، ولم يكلف عقله مشقة التفكير، ولم يكلف نفسه مشقة السؤال من الذي أوجد الطبيعة، ومن الذي أنشأها أول مرة والمثل الشائع يقول أن الله إن لم تكن العين قد رآته فإنه بالعقل قد عرف.

وإن لنا في إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة فقد نظر إلى الدنيا وما فيها. نظر إلى الأرض والماء وتطلع إلى الشمس والقمر وعرف من ذلك أن الله حق فأمن به عن عقيدة راسخة وأمتلأ قلبه بنور الإيمان ونور اليقين استمعوا لقوله تعالى:

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

(الأنعام ٧٥-٧٩)

وهكذا يؤمن إبراهيم عليه السلام بإيمانا لا لبس فيه. إيمانا بمن خلق الأرض والسموات العلى فأمن بالله وعرف أن لهذا الكون خالق أعظم من الدنيا وما فيها لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار ليس كمثله شيء.

وعندما يؤمن إبراهيم عليه السلام، ويطمئن بإيمانه، ويمتلئ قلبه بنور الإيمان، ونور اليقين فتمتلئ نفسه بالقوة، ويزداد بمعرفة ربه رفعة وعزة فإذا به يقف بين قومه وحيدا في قوة وعزم يناقشهم في عبادة الأصنام ويدعوهم إلى عبادة الله عز وجل ويحدثنا

القرآن الكريم عن ذلك فيقول:

* وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
 مَا هَذِهِ أَتْمَانِيَلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاقِبُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ
 أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦١﴾
 (الأنبياء ٥١ - ٥٦)

وعندئذ ينتقل إبراهيم عليه السلام من المجادلة بالمنطق السليم بعد أن تولى قومه
 مدبرين وبلغاً إلى عمل لا يلجأ إليه إلا كل مؤمن يعتز بإيمانه قوى بعقيدته فيقول:
 « وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُدًّا إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ
 إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدْعُرُكُمْ
 يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ
 هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾
 وهنا تسنح الفرصة لإبراهيم عليه السلام فيجد الحجة التي دبر لها قد وضحت
 والبينة التي خطط لها قد أثمرت فيقول:

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسَعَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجِعُوا إِلَىٰ
 أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْظِلُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاهُوَ لَآءُ يَنْظُرُونَ ﴿٦٥﴾
 قَالَ أَفْتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن
 دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
 (الأنبياء ٦٢ - ٦٧)

ولكن قوم إبراهيم وقد استولت عليهم الكبرياء الكاذبة وأعوزتهم الحجة فلا يجدون
 وسيلة غير العنف فيقولون:

حَرِّقُوهُ وَأَنْصُرُوا آءِ الْهَنْكَرَ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٦٨﴾ (الأنبياء ٦٨).

عندئذ تأتي رحمة الله التي تسع كل الوجود وتشمل كل موجود في ذلك الوجود فيقول سبحانه وتعالى:

يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

(الأنبياء ٦٩-٧١)

وهنا يظهر إيمان إبراهيم عليه السلام في أقوى صورة فلا يجزع، ويتقبل قضاء الله بعزم وحزم، وهو يعلم علم اليقين أن الله غالب على أمره، وأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. فتصبح النار بردا وسلاما وينجو إبراهيم من النار. وفي نجاته هذه معجزة وفي خروجه منها سالما معجزة وأي معجزة. ولكنها القلوب التي مرضت تأبى إلا أن تستمر في غيها وحقدها وجهلها وغضبها فلا يؤمنون ولا يسلمون وتبقى مشكلتهم كما هي وتبقى قلوبهم مغلقة مظلمة لأنهم أبوا أن يستجيبوا لمنطق العقل ومنطق الهداية والإسلام.

وعندما يمتلئ قلب المؤمن بالإيمان فتمتلئ نفسه بنور الإيمان ويمتلئ قلبه بنور اليقين فلا يرى إلا خيرا، ولا يقول إلا خيرا استمعوا إلى إبراهيم عليه السلام وهو يتحدث عن ربه كما يحدثنا القرآن الكريم:

قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَادُوًا لِّإِلَهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾

(الشعراء ٧٥ - ٧٩)

وهنا ينتقل عليه السلام الى موضوع آخر ويظهر في آدب الحديث عن رب العالمين

فيقول:

(الشعراء ٨٠)

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾

ولا يقول وهو يمرضني وهو يشفين ولكنه يقول فإذا مرضت فهو يشفين ثم يعود مرة أخرى ويقول:

(الشعراء ٨٢)

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

ولم يقل الذي يغفر لي خطيئتي يوم الدين فيكون قد كتب الغفران لنفسه والغفران حق من حقوق الله إن شاء أنعم به على عباده. ولهذا يقول إبراهيم عليه السلام

(الشعراء ٨٢)

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

ثم تنتقل إلى درجة أخرى من درجات الإيمان يضرب لنا بها إبراهيم عليه السلام أحسن الأمثال. انظروا اليه وقد رأى في منامه أن يذبح ابنه اسماعيل الذي رزق به على كبر كما يحدثنا القرآن الكريم:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾

(إبراهيم ٣٩)

ويقول القرآن الكريم في آيات أخرى:

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٤﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٢٥﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبُنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ. قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٢٧﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٢٨﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبْتَلِ ﴿١٣٠﴾ وَقَدَيْنَاهُ يَذْبَحُ عَظِيمًا ﴿١٣١﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٢﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٣﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(الصافات ١٠٠-١١١).

﴿١١٠﴾ إِنَّهُم مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾

يا سبحان الله أب يرزق بابت على كبر ثم يرى فى المنام أن يذبح ذلك الابن العزيز الذى كان يتمنى أن يرزق به، ولكنه يصدق بما يؤمر لأن رؤيا الأنبياء حق. ويسير الأب بابتة العزيز ويصدقه القول ويخبره بما هو مقبل عليه فيقول الابن:

يَتَابَتِ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾

(الصافات ١٠٣)

ويسير ابراهيم راضيا بقضاء الله ويسير معه ابنة المؤمن والمستسلم لقضاء الله، وهنا يناديه رب العالمين الرحمن الرحيم:

أَنْ يَدْعُوا بِرَبِّهِمْ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ

(الصافات ١٠٧)

الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

وهكذا يعيش المؤمن معتزا بإيمانه قويا بعقيدته.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَإِنْ طَافَتَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي
تَبَغَتْ حَتَّى تَأْتِيَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٩﴾

(سورة الحجرات)